المستوى 4
الوحدة 4 - الأسبوع 3

النص المسترسل

رِحْلَةُ ٱلسُّنْبُلةِ 3

رَأَيْتُ ٱلْفَلّاحَ يَقْتَرِبُ حَامِلًا أَدَواتِهِ، يَسيرُ فَوْقَ ٱلتُّرابِ بِوَقارٍ، وَيَتَأَمَّلُ ٱلسُّنْبُلاتِ وَهُوَ يُحَيِّيها كَمَنْ يَعْرِفُ كُلَّ واحِدَةٍ بِٱسْمِها. كانَ يَحْمِلُ مِقْلَعًا حادًّا، وَمِنْجَلًا لامِعًا، وَقُفّازَيْنِ مِنَ ٱلْجِلْدِ، وَقُبَّعَةً واسِعَةً تَحْميهِ مِنَ ٱلشَّمْسِ. بَدا مُسْتَعِدًّا لِشَيْءٍ عَظيمٍ، فَهذا مَوْعِدُ ٱلْحَصادِ ٱلَّذي طالَما ٱنْتَظَرَهُ.

وَعِنْدَما ٱقْتَرَبَ مِنّي، بَدَأَ يُرَدِّدُ: مَنْ زَرَعَ حَصَدَ، وَمَنْ جَدَّ وَجَدَ. شَعَرْتُ حينَها أَنَّها ٱلنِّهايَةُ، فَهَمَسْتُ لَهُ: "هَلْ سَتَأْخُذُني؟ هَلْ هذِهِ هِيَ ٱلنِّهايَةُ؟" لَمْ يَسْمَعْني وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوي، فَنادَيْتُهُ بِصَوْتٍ أَعْلى: "أَيُّها ٱلْفَلّاحُ، تَمَهَّلْ!"

تَوَقَّفَ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ بِٱسْتِغْرابٍ، ثُمَّ ٱنْحَنى نَحْوي، وَقالَ: "أَأَنْتِ تُناديني؟" أَجَبْتُهُ وَصَوْتي يَرْتَجِفُ: "نَعَمْ... أَنا ٱلسُّنْبُلَةُ ٱلَّتي كَبِرَتْ بِرِعايَتِكَ، وَسُقِيَتْ بِٱلْمَطَرِ، وَنَضِجَتْ بِنورِ ٱلشَّمْسِ. فَلِمَ تُريدُ أَنْ تَقْطَعَني؟ أَلَمْ تَكُنْ تَفْرَحُ بِنُمُوّي؟"

اِبْتَسَمَ ٱلْفَلّاحُ، وَدَنا مِنّي وَقالَ بِحَنانٍ: "يا سُنْبُلَتي، لَوْ تَعْلَمينَ كَمْ أَفْتَخِرُ بِكِ! أَنْتِ لَسْتِ نِهايَةً، بَلْ أَنْتِ بِدايَةٌ لِأَشْياءَ جَميلَةٍ. أَنْتِ سَتُصْبِحينَ دَقيقًا، وَٱلدَّقيقُ سَيُصْبِحُ خُبْزًا، وَٱلْخُبْزُ سَيُطْعِمُ أُسَرًا، وَيُساعِدُ فُقَراءَ، وَيُسْعِدُ أَطْفالًا..."

فَقَطَعْتُ كَلامَهُ بِصَوْتٍ مُمْتَلِئٍ بِٱلْخَشْيَةِ: "وَلَكِنَّني سَأَفْقِدُ نَفْسي، وَسَأَتَفَتَّتُ، وَسَأَتَغَيَّرُ!"

فَقالَ بِصَوْتٍ يَمْلَؤُهُ ٱلْيَقينُ: "لَكِنَّكِ سَتَبْقَيْنَ في كُلِّ لُقْمَةٍ تَسُدُّ جوعَ جائِعٍ، وَفي كُلِّ رَغيفٍ يُقَدَّمُ بِمَحَبَّةٍ. وَإِذا نَوَيْتِ ٱلْخَيْرَ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَسْتَفيدُ مِنْكِ سَيَكونُ شاهِدًا لَكِ. أَلَمْ يَقُلِ ٱللَّهُ تَعالى: وَيُؤْثِرونَ عَلى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ؟"

عِنْدَ ذَلِكَ، تَذَكَّرْتُ كَلِماتِ أُمّي ٱلسُّنْبُلَةِ ٱلْعَجوزِ، حينَ كُنّا بُذورًا في حُضْنِها، وَقَدْ قالَتْ لَنا وَعَيْناها تَلْمَعانِ بِٱلْحَنانِ: "سَتُغادِرونَني يَوْمًا، وَسَتُصْبِحونَ سُنْبُلاتٍ جَديدَةً، وَسَتَتَجَدَّدُ ٱلْحَياةُ بِكُمْ جيلًا بَعْدَ جيلٍ..." كُنْتُ قَدْ نَسيتُ كَلِماتِها لِبُرْهَةٍ، بِفِعْلِ ٱلْخَوْفِ وَٱلتَّوَتُّرِ، وَلَكِنَّها ٱلآنَ عادَتْ لِتُنيرَ قَلْبي، وَتُعيدَ إِلَيَّ ٱلثِّقَةَ وَٱلْهُدوءَ.

سَكَتُّ طَويلًا، ثُمَّ قُلْتُ: "إِذَنْ... خُذْني! لِيَكُنْ قَطْفي عَطاءً، وَتَفَتُّتي خَيْرًا، وَرَحيلي بِدايَةً جَديدَةً."

عِنْدَئِذٍ، مَدَّ ٱلْفَلّاحُ يَدَهُ، وَقَطَفَني بِرِقَّةٍ، وَضَعَني في قُفَّةٍ مَعَ سُنْبُلاتٍ أُخْرَياتٍ، كُلُّنا مُبْتَسِماتٌ فَخوراتٌ، وَنَحْمِلُ في جُعْبَتِنا أَحْلامًا جَميلَةً.

وَفيما كانَ ٱلْفَلّاحُ يُغادِرُ ٱلْحَقْلَ، كُنْتُ أَنْظُرُ مِنْ فَوْقِ ٱلْقُفَّةِ نَحْوَ ٱلْأَرْضِ، وَعَيْنايَ تَمْتَلِئانِ بِٱلدُّموعِ. نَظَرْتُ طَويلًا إِلى ٱلتُّرْبَةِ ٱلَّتي حَضَنَتْني، وَهَمَسْتُ: "سَأَشْتاقُ إِلَيْكِ، لَكِنَّها سُنَّةُ ٱلْحَياةِ. بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ، سَتَحْمِلينَ في أَحْشائِكِ بَعْضاً مِنْ بُذورِيَ ٱلصَّغيرَةِ. اِعْتَني بِهِنَّ! وَكوني لَهُنَّ حُضْناً يُعَوِّضُ غِيابي!

رَفَعْتُ بَصَري نَحْوَ ٱلسَّماءِ، وَرَأَيْتُ ٱلْغَيْمَةَ تُمْلي عَلَيَّ نَظْرَةَ وَداعٍ، وَٱلشَّمْسَ تُلَوِّحُ لي بِأَشِعَّتِها، فَشَعَرْتُ أَنَّ ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ تَصْطَفّانِ كِلْتَيْهِما في صَمْتٍ لِتَوْديعي.

ٱلْأَرْضُ مِنْ تَحْتي بَدَتْ حَزينَةً، وَلَكِنَّها تَبْتَسِمُ كَأُمٍّ تُوَدِّعُ ٱبْنَتَها في يَوْمِ زِفافِها وَتَقولُ: "سَأَظَلُّ أَحْتَفِظُ بِأَثَرِكِ، وَسَأَنْتَظِرُ ٱلْبُذورَ ٱلصَّغيرَةَ لِأَحْضُنَها حَتّى تَكْبُرَ مِثْلَكِ... فَٱلرِّحْلَةُ لا تَنْتَهي. فَأَنْتُمُ ٱلسَّنابِلُ كَٱلنَّهْرِ ٱلَّذي يُغادِرُ مَنْبَعَهُ لِيَسْقِيَ حَياةَ ٱلنّاسِ.

أَراحَني كَلامُ ٱلْأَرْضِ، فَأَكْمَلْتُ طَريقي مُطْمَئِنَّةً، وَلَكِنَّ سُؤالا واحِداً بَقِيَ يُراوِدُني: "هَلْ سَأَتَأَلَّمُ مِنْ حَرارَةِ ٱلْفُرْنِ حينَ سَأَتَحَوَّلُ إِلى خُبْزٍ؟ أَمْ أَنَّ ٱللَّهَ سَيُبَرِّدُ عَلَيَّ ٱلْفُرْنَ كَما جَعَلَ ٱلنّارَ بَرْداً وَسَلاماً على إِبْراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ؟"

يُتْبَعُ ...

القراءة
رسم توضيحي

المستوى 4
الوحدة 4 - الأسبوع 3

النص المسترسل

رِحْلَةُ السُّنْبُلةِ 3